

نفاق المثقفين

www.arabpsynet.com/documents/DocQassimIntellectualsHypocrisy.pdf

أ.د. قاسم حسين صالح

رئيس الجمعية النفسية العراقية

qassimsalihy@yahoo.com



• وفئة المنافقين الذين يظهرون للسلطة عكس ما يخفون، يتوددون لها طمعا في سلطة أو مال أو جاه أو دفعا لشراً يتوقعونه. ومن هذا الفريق ظهر أشخاص طمعوا في منصب بالسلطة وامتيازات بالثروة (أجادوا) لعبة النفاق بأن جعلوا من الحاكم الدكتاتور شخصية كامرئمية. استثنائية، يتوجب على الناس طاعتها والقبول بها والرضا عنها. وكان اخطر هؤلاء المنافقين أولئك الذين احتلوا وسائل الإعلام لا سيما رؤساء تحرير الصحف والفضائيات والإذاعات وكتب المقالات والبرامج السياسية. وشاع هذا على صعيد الأنظمة العربية قبل ثورات مربيع العرب...

يعني النفاق أن يظهر الشخص عكس ما يضمّر، وأن يكون لسلوكه هذا سبب وغاية يختلفان عن سلوك

المجاملة. والتحليل السيكولوجي لسبب النفاق هو الخوف من (سلطة)، فيما الغاية تكون تأمين حياة أو مصدر رزق و اسعاد حال أو سلطة أو تماهي بالسلطة.

ويبدو ان بداية تحول النفاق من حالات محدودة الى ظاهرة كانت بتحول الدين الى سلطة. وأن الدين الاسلامي

تحديدا هو الذي نبه الى خطورتها الاجتماعية وفصل في رذائلها الأخلاقية.. اذ خص النفاق في دستوره (القرآن الكريم)

بسورة كاملة بعنوان (المنافقون)، فضلا عن ثلاث آيات في سورة النساء، اذ بشر المنافقين، في الأولى، بعذاب أليم (

بشر المنافقين بأن لهم عذابا اليم - 138) وساوى في الثانية بين المنافقين والكافرين (ان الله جامع المنافقين والكافرين

في جهنم جميعا - 140)، ووضع المنافقين، في الآية الثالثة في الدرك الاسفل من جهنم (ان المنافقين في الدرك الاسفل

من النار ولن تجد لهم نصيرا - 145). وحدد النبي محمد (ص) رذائل المنافق بثلاث: (آية المنافق ثلاث: اذا حدث كذب

واذا وعد أخلف واذا أؤتمن خان)، وأنه يكون بوجهين، و"ما ينبغي لذي الوجهين ان يكون أمينا". ويمكنك أن تضيف

رذائل أخرى للمنافق: التقلب في المواقف، التناقض بين المظهر والجوهر، حلاوة اللسان وعذوبة المنطق، وامتلاك

قدرة في تمثيل دور المحب أو الحريص أو المؤيد.

ونرى أن الذي يحدد نوع النفاق ومدى شيعه ثلاثة عوامل أساسية هي: الفلسفة التي تتبناها السلطة، وأساليب

التعامل التي يعتمدها النظام في إدارة شؤون الناس وحكم المجتمع، وطبيعة الأحداث التي تقع له وما ينجم عنها من

تغيير أو تخلخل يصيب المنظومات القيمية للناس.

والذي يستعرض تاريخ هذه العوامل الثلاثة في العراق ، يجد أنها تتصف بعدم الاستقرار ، وأن السلطات التي توالى على حكم العراق كانت تتعامل مع العراقيين بقسوة ولم تكن عادلة في حكمها للناس وتحديدا في توزيع الثروة ، وأن الأحداث التي واجهها العراقيون عبر تاريخهم الطويل كانت في معظمها كارثية .

ولقد أفرزت الأزمات والمحن المحملة بالضغوط النفسية الحادة والحياتية المتنوعة التي عاشها العراقيون بشكل خاص ، ثلاثة أصناف بارزة في المجتمع العراقي فيما يخص العلاقة بالسلطة ، هي :

- فئة المسالمين ، الذين يعدّون السلطة " شرًا " وأن البعد عنها أسلم .
- فئة المعارضين للسلطة الذين وقفوا بوجهها وعملوا على الإطاحة بها ، ونظّموا أنفسهم في أحزاب سياسية وحركات دينية وتجمعات وطنية أو عشائرية .

- وفئة المنافقين الذين يظهرون للسلطة عكس ما يخفون ، يتوددون لها طمعا في سلطة أو مال أو جاه أو دفعا لشرّ يتوقعونه . ومن هذا الفريق ظهر اشخاص طمعوا في منصب بالسلطة وامتيازات بالثروة (اجادوا) لعبة النفاق بأن جعلوا من الحاكم الدكتاتور شخصية كارزمية ..استثنائية،يتوجب على الناس طاعتها والقبول بها والرضا عنها.وكان اخطر هؤلاء المنافقين اولئك الذين احتلوا وسائل الاعلام لا سيما رؤساء تحرير الصحف والفضائيات والاذاعات وكتّاب المقالات والبرامج السياسية..وشاع هذا على صعيد الأنظمة العربية قبل ثورات ربيع العرب.

غير أن الشعر بنوعيه الفصيح والشعبي كان أكثر وسائل النفاق استعمالا" وتأثيرا على صعيد العلاقة بين السلطة والشاعر . وكان أن أستخدمه عملاقا الشعر العربي..المتنبي والجواهري. فشاعل الدنيا الهائل العظيم (المتنبي) مدح حاكما" وضيعا" مغتصبا" للسلطة من أجل أن يوليه على أمانة ولو بسعة مدينة حلب، ولما لم يستجب كافور لطلبه هجاه بأفضع ما في قاموس لسان العرب من مفردات.

وشاعرنا العظيم (الجواهري) الخالد صاحب الروائع الخالدات: (أخي جعفرا ، قف بالمعرة ، يا دجلة الخير ..)

مدح أحمد حسن البكر وصادم حسين : (نعمتم صباحا" قادة البعث واسلموا ..) ثم هجاهم شرّ هجاء بعد انقلاب

رمضان الدموي عام 1963: (أمين لا تغضب وأن أغرقت..عصابة بالدم شهر الصيام/ وان غدا العيد

وأفراحه..مأتما" في كل بيت يقام) .

وثمة شاهدان حديثان عن النفاق لدى الشعراء العراقيين،شهدتهما شخصيا ونعيد الاشارة لهما:

الأول عن شاعر معروف، أكاديمي، كان يببالغ في مدح الرئيس السابق صدام حسين ، وحين يظهر في التلفزيون

يلقي قصيدة في مدح صدام، كان يتباهى صباح اليوم التالي أمام طلبته ليس فقط بوصف قصائده بالعصماء، إنما أيضا" بالمكرمات التي منحها له الرئيس. وحين سقط الرئيس اعتكف في داره لأيام ثم حضر الى الكلية وهو مرعوب.. وبعد أسابيع أعلن أنه ينتسب الى عائلة علوية معروفة، وأخذ يتباهى بخاله الذي أعده صدام، والذي كان أنكر خوولته حين كان صدام في السلطة.

والشاهد الثاني: في الأسبوع الثالث لسقوط النظام اكتظت قاعة الأدريسي بكلية الآداب في باب المعظم بمئات

الشعراء والصحفيين والفنانين والمذيعين لتشكيل رابطة تدافع عن حقوقهم . ولفت انتباهي موقفان حدثا أمامي: الأول "

تناوش " أحدهم شاعرا" شعبيا" معروفا" قائلا" له : (عيب عليك أستحي ، لو كنت مكانك لأخفيت وجهي، فأنت رفعت صدام بقصائدك الى السماء). فأجابه الشاعر : (والآن ذهب صدام الى الجحيم ولا مانع عندي أن امدح الشيطان اذا صار رئيس جمهورية). والثاني: أن أستاذا" جامعيا" كان عضوا" في حزب البعث استشار سياسيا" قادما" من الخارج أن ينصحه ما اذا كان من الأفضل له أن ينتمي الى حزب إسلامي أم الحزب الشيوعي !.

ولأن سيكولوجيا النفاق تعمل بآلية واحدة حين تكون السلطة في الأنظمة الشمولية تعمل بآلية واحدة، فان العلاقة بين الأنظمة العربية والمتقنين أفرزت ثلاثة أنواع:مدّاحون،ومعارضون،وموظفو ثقافة..كان أغلبهم في حالة اغتراب مع الثقافة ،ومع أنفسهم ايضا.فمن مهمات المدّاحين،تجميل الوجه القبيح للسلطة وتبرير التجاوز على الحريات والسكوت عن جرائم البوليس السري والمخابرات.ومع أن معظم المدّاحين الذين سيطروا على وسائل الثقافة الرسمية:صحافة،اذاعة،تلفزيون..حظوا بالامتيازات،الا أنهم كانوا يدركون أن مهمتهم لا تختلف عن شاعر أموي أو عباسي يمدح الخليفة ليجزل له العطاء..وانهم كانوا يحتقرون أنفسهم حين يختلون بها،الا المسيئين الذين ربطوا مصيرهم بالنظام وروّضوا (أنا) المتقف لتكون بخدمة (أنا)السياسي.

وكان موظفو الثقافة،بمؤسساتها الرسمية، رماديين في علاقتهم بالسلطة بين من اتخذ الثقافة مصدر عيش فتعامل معها (مسلكيا) وبين من وازن بين (أناه) التقافي والسلطة بعلاقة شبيهة بشعرة معاوية..فيما توزع المعارضون ،وهم القلّة، بين من انكفأ على ذاته أو هاجر الى بلاد نائية فمات قهرا أو طلقّ الوطن أو..نحره ابداعه!.

وما لا يدركه كثيرون أن أهم انجاز "غير مرئي" حققه تسونامي العرب،أنه أنهى (الاغتراب النفسي) لدى المواطن. فلأول مرّة يشعر المواطن أن الوطن له وليس لحاكم صادرة بكل ما فيه وأحيا وأمات بأسمه. ولأول مرّة يهزج الناس بفرح وكبرياء أنهم ما عادوا يخافون الدولة بعد أن جاءوا هم بها!. ولأول مرّة ينشد الشعراء بصدق ويغني الفنانون بزهو.. للناس والوطن. وكان أطعم من تذوق حلوة عودة الوطن للمواطن هو المتقف الذي أضناه نواحه عليه.. لأنه ارهفهم حسا"،ولأن علاقته بالوطن.. رومانسية راقية كعلاقة عاشق متيم بمعشوقة تفردت بالحب والجمال والعطاء.

ومع ان الثقافة الشمولية "الحولاء" التي كانت تنتظر للأمور بعين واحدة.. عين السلطة والحزب الواحد انتهت، لكن ثقافة كانت لنصف قرن بالحال الذي ذكرناه لن ترحل، بزيفها واغترابها وسوداويتها وتشوهاتها الأخلاقية والسلوكية ومفاهيمها المتخلفة المشفّرة في العقل الجمعي للناس، في أسابيع كما رحلت أنظمة.كما أن السلطة نفسها، حتى لو كانت ديمقراطية، ستبقى بها حاجة الى متقنين منافقين ، كثير منهم تمرّس في النفاق وصار مسموعا ومقروءا من السلطة والناس!.. أليس هذا ما هو حاصل الآن في أنظمة عربية صارت ديمقراطية !!

*** **

Arabpsynet

www.arabpsynet.com

Arabic Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultAr.ASP>

English Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultEng.ASP>

French Edition

<http://www.arabpsynet.com/defaultFr.ASP>